

## الصراع مع الاسلام والمعرفة الحديثة

2017-05-16 حكمت البخاتي

لقد فهم الصراع بين الغرب والشرق الاسلامي على انه صراع ديني تعود جذوره الى أيام الصراع والحروب بين الدولة الرومانية والدولة الاسلامية، ولان الديانة المسيحية كانت هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية في قبالة الاسلام الذي هو الدين الرسمي للدولة العباسية التي تبنت حروب الدفاع أو حروب الفتح مع الرومان.

من هنا أخذ الصراع منحى دينيا في التعريف بهويته وبأسبابه، ثم جاءت الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، لتكرس حقيقة الحرب الدينية بين أوروبا المسيحية والشرق الاسلامي والتي أطلقت عليها أوروبا الحرب المقدسة، ثم انشغلت أوروبا بحروبها المذهبية والطائفية/المسيحية بين الكاثوليك والبروتستانت في القرون التي تلتها، لتتشغل أوروبا عن الشرق الاسلامي الذي وجد نفسه في هذا العصر أيضا في حلقة من الحروب الدينية المذهبية/الاسلامية بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة.

وإذا كانت أوروبا قد استطاعت أن تمحو من ذاكرتها آثار الحروب المذهبية المسيحية بواسطة العلمنة التي شملت كل مناحي الدولة في أوروبا السياسية والقانونية، فإن آثار الصراع الديني مع الشرق الاسلامي لم تتخلص منه بالكلية أو تسقطه من ذاكرتها نهائيا، بل توثقت القناعة في الخطر الاسلامي المغروس في الذهن الأوروبي منذ ان وصل الجيش العثماني الى حدود النمسا وحاصر عاصمتها فيينا في العام 1529 والعام 1532، وكان ذلك الاحساس بالخطر الموروث في الذاكرة الأوربية حاضرا في زحمة الصراع بين الغرب ذي الشكل العلماني والشرق ذي المضمون الاسلامي، وكانت الخشية في أوروبا من عودة الصراع بهذا المعنى الديني مع الشرق، لكن أوروبا لم تكن على قدر المسؤولية في مواجهة هذه التوقعات بل مهدت مؤسسات الاعلام ومحفزات المخيال الأوروبي على تبني الخطاب الذي يعكس إيمانا ضمنيا وقناعة راکدة في عمق فكر أوروبا بهذا المعنى الديني في الصراع مع الشرق ذي الهوية والطبيعة الدينية في تصور الغرب، وهو ما مهد تحت تأثير الرادع الامني الى صعود التيارات اليمينية والشعبوية، وهي خليط من التوجهات العرقية

والدينية/المسيحية قادت الى تضخم الايمان بهذه المواجهة ذات المنحى الديني مع الشرق.

لقد غدى الاستشراق باعتباره من وسائل المعرفة للآخر/المسلم تلك التصورات لكنه ترك الباب مفتوحا لفهم أدق للإسلام يكاد أن يعيد النظر بطبيعة هذا الصراع وتفسيره بعيدا عن تلك الغرابة أو الاستثنائية الدينية في طبيعة شعوب الشرق الاسلامي التي رسختها وزادت في تكريسها في ذهنية أوروبا ووسائل المعرفة في عصر ما بعد الحداثة حين تخطت المركزية والاصول في المعرفة التي أسست لها الاكاديميات والمؤسسات العلمية في عصر الحداثة الأوروبية وأنتجت الاستشراق بكل ثقله العلمي والمعرفي.

لقد تحولت الصحافة الى مؤسسات توازي المؤسسات العلمية/الاكاديمية في التأثير المعرفي وفي الحصول على المعلومة ويقينية التوثيق بخصوص الشرق الإسلامي، ونجحت وعلى طريقة الاختزال الصحفي في اختصار العالم بالغرب مضافا الى الولايات المتحدة الأميركية التي صارت رائدة العالم الحر كما تصف نفسها في أدبياتها، وفي قبالة ذلك تم إختصار الشرق الاسلامي من الرومانس الذي ألهم الرحالة الأوربيين، من الحضارة التي تحدث عنها آدم متز، وآخرين من الفحولة الإسلامية التي تحدث عنها نيتشه ضمن إيمانه بفكرة السوبرمان، من التصوف والعرفان الذي تحدث عنه ماسنيون وكوربان، من القانون/الفقه ومدارس علم الكلام واللغة ومدارس التفسير التي تحدث عنها غولد زيهر، تم إختصاره بامكانية نسف العالم من حوله وثقافة الكراهية والحرب على الآخر، أخيرا تم إختصاره بشكل حاسم ونهائي في الاصولية.

وقد اظهرت نتيجة تحليل الكتاب المدرسي وفق البرشت نوت الذي تناوله الطالب الالمانى في تخصصات الدين - انجلي/كاثوليك والتاريخ والجغرافية ان هناك عجزا في تناول الاسلام والمسلمين وقد تفاوت العجز بين الكم والكيف والتناسب الموضوعي، فمن جهة الكم هناك قلة شديدة في المعلومة، ومن جهة الكيف هناك خطأ/تحريف في فهم الاسلام، ومن جهة التناسب الموضوعي فالمعلومة المستحصلة عن الاسلام تفتقد الى الاهمية النوعية في المعرفة بالإسلام.

ويعلل الكاتب نوت كل ذلك العجز في الرجوع الى مصادر ضعيفة في فهم الاسلام مما جعل التعليم في المانيا (تنقصه المعرفة السديدة عن الاسلام) - الشرق الاسلامي خطوط تاريخه الرئيسية، نوت

باول- وكان الكاتب الفرنسي الجزائري الاصل محمد اركون قبل ذلك قد ابدى انزعاجه من انتقال دراسة الاسلام من دوائر الاستشراق والدرس المؤسساتي الاكاديمي الى كتاب وصحفيين غير محترفين بتاريخ الاسلام وغير متخصصين بدراسة الاديان.

## المعلومة السريعة والمقتضبة ومعرفة الاسلام

لقد تحول الاسلام من مادة ثمينة للدراسة في الغرب لاسيما في عصر الاستشراق الى مادة متداولة وبشكل مجتزأ في حياة الغرب المعاصر، ولعل عصر المعلومة السريعة والمقتضبة التي امتازت بها وسائل المعرفة التي يمكن ان نطلق عليها اليومية والمنتشرة الى حد الابتذال كما يبدو في حياة الانسان المعاصر، واعني بها المؤسسات الاعلامية التي تحولت الى سلطة مشاركة في صناعة القرار والرأي العام وليس مجرد سلطة رابعة تكتفي بحدود المراقبة لاسيما مواقع التواصل الاجتماعي التي باتت تمتهن تشكيل المعرفة اليومية لاسيما في السياسة، بل وتشكيل الموقف بشكل عملي على اساس المعرفة والمعلومة التي تسوقها والتي تمتهن نبذ الآخر والشحن المعادي بإزائه في الحوارات والمنشورات التي تبثها تلك المواقع والتي لم ينجو منها الاسلام بشكل خاص سواء عن طريق منشورات المنتمين اليه او المنشورات المضادة، واطارها في ذلك انها وسائل في المعرفة وبطبيعتها التقنية والتجارية تفتقر الى العمق في الادراك والتخصص العلمي في تناول الاشياء والافكار والعقائد.

انها الغت النخبوية المفترضة في المعرفة والغت قواعد الحوار البناء في انتاج المعرفة، وبالقدر الذي شكلت تلك المواقع معابر للذات الفردية الى العالم الحديث والى اوسع مساحة من الاتصال به، فإن الذاتية الصرفة الغت معيار الموضوعية الذي انبت عليه او حاولت جاهدة ان تتأسس عليه العلوم الانسانية الحديثة التي بدأت تتناول الاسلام في تطبيقاتها المنهجية ودراساتها العلمية والميدانية، لكن انحسارها وبطبيعتها عن وسائل التواصل تلك وعن اهتماماتها الاعلامية التي تمتهن العلوم السريعة والمقتضبة ادى الى انحسار تأثيرها ودورها في صناعة المعرفة الحديثة حول الاسلام وقد ورثت الاستشراق في وظيفته في دراسة الاسلام والشرق الاسلامي.

لكن الاستشراق تفوق عليها في تكوين وشائج للصلات الاجتماعية بين دارسي الاسلام من الغربيين

والمسلمين، فقد درس الكثير من الطلاب المسلمين على يد مستشرقين كبار وقد تحول هؤلاء الطلاب المسلمين الى كتاب كبار استطاعوا في بعض اعمالهم الرد على الاستشراق وخوض نقدا علميا تجاه اراءه وافكار المستشرقين، لقد استطاعوا ردم الهوة جزئيا بين الاستشراق والاسلام او حتى بين الغرب والشرق الاسلامي.

الا انه ومع نهاية عصر الاستشراق وانحسار وظيفته في التعريف بالإسلام وثقافته وطبيعته اجتماعه وانحسار تواصل الكتاب المسلمين مع تراث الاستشراق وعجز العلوم الانسانية الحديثة التي ورثت الاستشراق في التأثير المعرفي بصياغة الرؤية الاوربية تجاه الاسلام مثلما فعل الاستشراق لا سيما في شقه الاكثر سلبية تجاه الاسلام، فإن الرغبة الملحة في معرفة الاسلام والفضول اليومي للأفراد الاوربيين في تلك المعرفة الذي جاء نتيجة اضطراب العلاقة بين الغرب بالشكل العلماني والشرق ذي المضمون الاسلامي وانحسار مصادر المعرفة العلمية والموثوقية المعرفة ليس عن التواجد ولكن عن التأثير، اوحى لذلك الفضول ان يصدر او يتسبب عن عوامل القلق والارتباك التي غزت نفوس الافراد الاوربيين تجاه الاسلام لدراسة دوافعه في محاولة معرفة هذا الكائن الغريب عن حياة الحداثة والغريب ايضا عن تفاعلات الحضارة السائدة المهيمنة في العالم وهي حضارة الغرب.

لقد بدا الاسلام غريبا في ماهيته وفي سلوكه بعد انحسار مصادر المعرفة به عن الريادة في قيادة المعرفة بخصوصه، لقد جاء محرك ذلك الفضول الذي تخلى عن معدات المعرفة الاساسية نتيجة الاحداث الارهابية في اوربا التي تسبب بها اصوليون اسلاميون سمحت دول اوربا لاسيما بريطانيا وفرنسا في التحرك لهم بحرية مربية في مدنها تحت ذريعة حقوق الانسان، لكنها لبت طموحات الغرب في صناعة صورة مشوهة وسيئة للإسلام.

وهكذا عاد توجيه الصراع بين الغرب والشرق الاسلامي تحت يافطة الصراع الديني، لكن هذه المرة ووفق ايدولوجية الغرب يتحمل الشرق الاسلامي توجيه الصراع توجيهها دينيا بعيدا عن توجهات وتوجيهات الغرب الذي وجه الصراع لاعتباره صراعا ثقافيا بين قيم الحداثة الليبرالية وقيم الاسلام الجامدة على منطوق وسلوك العصور الوسطى الذي ادى بالغرب الى امتثاله حالة نفسية واجتماعية عبر عنها مونيكا توشيكا - الشرق الاسلامي، م س - ب (التحاملات) او هي تمثلات العالم الحديث، او هكذا اراد ان يمنحها الغرب صفة تاريخية في تبرير ومشروعية تحاملاته تلك ضد الاسلام وافراده

رغم انها خاطئة ومبالغة فيها وفق توشيكا.

\* باحث في مركز الامام الشيرازي للدراسات والبحوث/2002-2017

<http://shrsc.com>